أبو الفرج وأغانيه (*)

أستاذ محمد حسين الأعرجي

حظي كتاب "الأغاني" باهتمام الأدباء قدماء ومحدثين؛ لما فيه من مادة غنيّةٍ، وعلمٍ جمٍّ حتى كاد لايعرف صاحبه أبو الفرج الأصبهاني إلاّبه، فتحدث عنه القدماء حديث تقريظ وثناء حتى كان من رأي ابن خلدون فيه أنه "هو كتاب العرب وديوانهم، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم، وملّته، وسير[ة] نبيّهم صلى الله عليه وسلّم، وآثار خلفائهم، وملوكهم، وأشعاره، وغناؤهم... فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب" [1].

وأخذه المعاصرون بالبحث والدرس، فكتب عنه - على سبيل المثال لا الحصر- محمد عبد الجواد الأصمعي كتابًا سمّاه "أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني"، وألفّ فيه الدكتور محمد أحمد خلف الله كتابًا نفيساً عنوانه" صاحب الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني الراوية"، وعرض إليه الدكتور زكي مبارك عرضاً طيّبًا في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" وقصّر الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه "دراسات في مصادر الأدب" عن شوط أولئك، فسطا على الأصمعي ومبارك، وألف مما قالا مبحثًا عن "الأغاني" نشره في الجزء الأول من كتابه. وإني لأرجو أن أفرغ لابيّن هذا السطو في قابل الأيام[2].

هذا ماحظي به الكتاب بل هو- على الأصح- بعضه. أما صاحبه فلم يكد يلقى، لولا كتاب خلف الله، الحظوة نفسها، إذ لم يكد هؤلاء المؤلفون - عدا الدكتور خلف الله- يضعون في حساباتهم أن يقرأوا كتب أبي الفرج لعله ذكر شيئا من سيرته فيها، وإنما ظلوا يعيدون من أخباره المتناقضة المتنافرة مالايكاد يرسم له شخصية واضحة. مما يجعلني مضطراً للحديث عن ترجمته.

ولقد كنت قبل أن يتفضّل عليّ أحد الأصدقاء بكتاب خلف الله قد نقبت في كتابي أبي الفرج: "الأغاني" و "مقاتل الطالبيين" أستخرج منهما أشياء تخص حياته مما لم يذكر في أخبار ترجمته، ففرحت بما آكتشفت حتى وجدت أن الدكتور خلف الله قد نخل "الأغاني" نخلاً فأخرج منه صورة هي أوضح مانعرف لأبي الفرج من صورة. على أن هذا لايمنعني أن أقول: إنني وجدتني أختلف معه قليلاً في هذا الموضع أوذاك، وأتفق معه حيث سكتُّ فأفيد منه، في ترجمة أبي الفرج وأقف الآن عند أبي الفرج فأقول:

هو عليُّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.. ينتهي نسبه الى بني أميّة من خلال جدّه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة المعروف بمروان الحمار(*)، لُقّبَ بذلك لكثرة ما احتمل في خلافته من الفتن والاضطرابات والثورات وهو - كما سردت له نسبه- عربي صليبة ينتهي إلى أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف.

إمّا نسبه لأمّه فلم يكن كذلك؛ فأمُّه هي بنت يحيى بن محمد بن ثوابة فقد نقل بعض رواياته في-الأغاني قائلاً: "وقد نسخت هذا الخبر من كتاب جديّ يحيى بن محمد بن ثوابة بخطه..."[3]، وآل ثوابة هؤلاء، وهم علي مايبدو- ثلاثة إخوة هم: أحمد بن محمد بن ثوابة، وجعفر بن محمد بن ثوابة، وجدّ أبي الفرج لأمّه: يحيى، وثلاثتهم من الكتّاب، وهم من أصل فارسيّ نصرانّي، ولكنهم صاروا إلى الإسلام، وإلى التشيّع- على وجه خاصّ- منه. وقد عمل نفر من آل ثوابة في دواوين الخلافة العباسيّة "منذ أواسط القرن الثالث للهجرة الى منتصف القرن الرابع" [4] ومن هؤلاء النفر جدّ أبي الفرج وأخواه.

وأول من لمع آسمه من هؤلاء أبوهم "محمد بن ثوابة، وكان يعمل في دواوين الدولة، وهو من ممدوحي البحتري، وكان آبنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل.. بآخرةٍ من عصر المعتمد، وقد توفي سنة 284 للهجرة...»[5].

وإذا عرفنا أن حاضرة الخلافة في القرن الثالث قد انتقلت إلى سامّراء منذ خلافة المعتصم العباسي، وعرفنا أن أسرة أبي الفرج هم من الكتاب، وأنهم كانوا يستوطنون سامراء(4)، تيسّر لنا أن نقول: إن الأسرتين: آل ثوابة وآل الأصبهاني كانتا تسكنان سامراء، وإنّ اشتراكها في مهنة الكتابة في دواوين الخلافة قد أهلّت محمد بن أحمد

الأصبهاني أن يخطب لولده الحسينّ، بنت يحيى بن محمد ثوابة. ولكننا لانعرف متى كان ذلك رغم معرفتنا أن هذا الزواج أنجب ولداً سمّاه أبوه الحسين: عليّاً وهو صاحبنا الذي نترجم له، وأقول لانعرف؛ لأننا وجدنا أن كنية الحسين الأصبهاني أبو العباس وليس أبا علي أما سنة ولادته فهي باتفاق المؤرخين ممّن ترجموا له 284 هـ، وهي السنة التي توفي فيها أخو جدّه لأمّه: جعفر بن ثوابة، والتي توفي فيها البحتريّ الشاعر أيضًا، وأما مكانها فهو محلّ خلاف فقد فهم الذين ترجموا لأبي الفرج من قول المؤرخين عنه :"أصبهاني الأصل، بغدادي المنشأ" أنه ولد بأصبهان دون أن يكون لديهم دليل على مكان ولادته، وجعل الدكتور خلف الله برجّح أن ولادته كانت بسامراء، ذلك "أن أسرة أبي الفرج كانت تقيم بسرّمن رأى. وكانت تقيم بها قبل مولد أبي الفرج بخمسين من السنين. كان يقيم بها جدّه، وجدّ أبيه، وكان يقيم بها عمّه، وعمّ أبيه..."[1].

وحجة الدكتور خلف الله - كما يبدو- أول الأمر مقنعة، مقبولة، ولكن الذي يمنعني من قبولها هو أن مؤدّبه- أعني أبا الفرج - هو "محمد بن الحسين الكندي الكوفي" [2] من الكوفة، وأن من شيوخه الكوفيين محمد بن عبد الله الحضرمي المتوفى في سنة 297 هـ، ومحمد بن جعفر القتات المتوفى في سنة 300 هـ [3]. ومعنى هذا أنه سمع من الحضرمي في الكوفة قبل عام 297؛ لأنه توفي في ربيع الآخر من هذا العام أي في الربع الأول منه، ومعناه أيضًا أن أبا الفرج سمع منه وله من العمر اثنى عشر عامًا، فإذا كان هذا هو مقدار عمره في السماع فكم كان عمره حين أدّبه محمد بن الحسين الكندي الكوفي؟

والذي جعل الدكتور خلف الله يرجّح أنه ولد في سامراء ظنُّه أن أباه بعثه إلى الكوفة وحيداً من أجل التحصيل[4] ولكنني أستبعد أن يفعل هذا أب بابنه؛ لأن الثابت أن مؤدبه هو الكندي الكوفي- كما ذكرت- وأنه كان خطيب المسجد الجامع بالقادسية، والقادسية أقرب كثيراً إلى الكوفة منها إلى سامراء، أم ترى علي بن محمد الأصبهاني استدعى الكندي الكوفي الى سامراء يودّب ولده؟ وهذا ما لا أرجّحه؛ لأنه ما كان أسهل أن يجد له مؤدبا في سامراء نفسها. وأظن أن الكندي أدّب أبا الفرج في الكوفة، يحملني على هذا الظن أنه سمع من شيوخ كوفيين ألفّ من سماعه عنهم- فيما

بعد- كتابه "مقاتل الطالبيّين" وله من العمر تسع وعشرون سنة مثل "أحمد بن محمد بن سعيد الهمذاني، ومحمد بن الحسين الكندي، وعلي بن العباس المقانعي، وأحمد بن عيسى بن أبي موسى العجلي، والحسين بن الطيب بن الشجاعي البلخي، ومحمد بن علي بن مهدي. وكثير غيرهم ممن نصّ أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة"[1] ويحملني عليه أيضاً ما نعرفه من أن الفرق بين المعلّم والمؤدّب- في أحد وجوهه -هو أن المؤدب يستقدم إلي بيت الصبي، على حين يذهب الصبي إلى المعلم في كتابه. فإذا أيقنا- كما يقول الدكتور خلف الله نفسه- بأنّ الكوفة، ومحمد بن الحسين الكندي، وعلي بن العباس المقانعي، وأحمد بن عيسى بن أبي موسى العجلي، والحسين بن الطيب بن الشجاعي البلخي، ومحمد بن علي بن مهدي، وكثير غيرهم ممن نصّ أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة" [1]. ويحملني عليه أيضاً مانعرفة من أن الفرق بين العلم والمؤدّب - في أحد وجوهه -هو أن المؤدب يستقدم إلى بيت الصبيّ، على حين يدهب الصبيّ إلى المعلم في كتابه. فإذا أيقنّا- كما يقول الدكتور خلف الله نفسه - بأن الكوفة "مدينة النشأة والتربية الأولى[2]" وأنّ سن تعليم الطفل عند معلّم أو مؤدّب هي عادة "السنة الخامسة أو السادسة من عمره[3]" حتى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة- على أكثر تقدير- من عمره جاز لنا أن نتصوّر أنه إنما أدبه الكندي الكوفي، لأنه ولد بها، أو لأنه جاءبه أبواه- على أسوأ الفروض - الى الكوفة وهو طفل غرير، وإلاّ فمن غير المعقول أن يبعث أب بابنه من سامراء إلى الكوفة- على مابينهما من المسافة- وله من العمر خمس سنوات أو ست.

أما لماذا هجر الحسين بن محمد الأصبهاني سامراء، فيخيّل لي أنه فعل هذا أسوةً بمن هجرها بعد أن نقل المعتمد حاضرة ملكه منها إلى بغداد سنة 276 هـ، فقد هاجر خلق كثير من سامراء حتى لقد أحزن منظرها شاعراً مثل أبي علي البصير فرثاها بقصيدة ميميّة[4]. وأما اختياره الكوفة فلعله جاء من وجهين أولهما "أن الكوفة أقرب البيئات الثقافية إلى قرية النيل وهي قرية آل ثوابة" [5] الذين منهم - كما رأينا- زوجه، وثانيهما أن نذر الفتنة الطائفية قد بدأت تلمع منذ أن امتحن المتوكل الفقهاء في خلق القرآن، وأنّ من الخير له- وقد أوشكت هذه النذر أن يزداد لمعانها في العقدين الأخيرين

من القرن الثالث- أن يسكن مدينة يعتنق هو وزوجه وآبنه مذهبها أعني بهذا المذهب التشيّعَ لآل البيت.

ومهما يكن من أمر فقد تأدب صاحبنا في الكوفة، واختيار مؤدب لطفل لم يكن يقع إلاّ لأولاد الخلفاء والوزراء والأمراء والمياسير من الناس، إذ كان هؤلاء "يستقدمون المعلمين إلى قصورهم لتأديب أولادهم، وتعليمهم، وتهيأتهم لما ينتظرهم من مهام جسيمة" [1]. وإذن، كان الصبي على مايبدو من عائلة موسرة امتهن أفرادها الكتابة، وهو معم مخول فيها.

ويمكننا أن نتخيل ماتلقاه علي بن الحسين عن مؤدبه من حفظ القرآن الكريم- على عادة ذلك العصر- ومايمكن أن يعينه على فهم بعض آياته من نحو وإعرابٍ يسيرين، ورواية شاهدٍ أومثلٍ، وماتلقاه عنه من قدر يسير من أشعار العرب ومن تلك الأشعار مارواه أبو الفرج نفسه عن مؤدِّبه، فقد قال: "أخبرني محمد بن الحسين الكندي مؤدبي قال :حدثني علي بن محمد النوفلي، قال حدثني عمي قال: دخل الحكم بن قنبر علي عمي وكان صديقًا له فبشر به، ورفع مجلسه، وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدني أبياتك التي أقسمت فيها بما في قلبك فأنشده:

وحقّ الذي في القلب منك فإنّه عظيم، لقد حصنت سرك في صدري

... فقال لي: يابني اكتبها واحفظها ففعلت وحفظتها يومئذٍ وأنا غلام" (2) وأما ماعدا ذلك فقد دلّنا عليه الجاحظ المتوفى في سنة 255 هـ في فصله عن المعلمين، إذ بيّن لنا البرنامج الذي يقرئونه للأطفال من خلال ما أوصى به المعلم قائلاً:"وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلاّ بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه، وشعر إن أنشده، وشيءٍ إن وصفه ومازاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أردّ عليه منه، من رواية المثل [و] الشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع... وعويص النحو لايجري في المعاملات ولايضطر إليه شيء، فمن الرأي أن [يعتمد] به في حساب العقد دون حساب الهند، ودون الهندسة، وعويص مايدخل في المساحة... وأنا أقول إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل [والتوقي] فيه، والسبب إليه، أردُّ عليه من البلوغ في صناعة المحرِّرين ورؤساء

الخطاطين.. ثم خذه بتعريف حجج الكتّاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار..."[1]

فإذا عرفنا أنّ الموسرين من الناس حين يستقدمون مؤدبًا يشاركونه "عادة في وضع المنهاج الذي يلائم" [2] أولادهم، أدركنا أن أبا الفرج قد أعدّ ليكون أبا الفرج الأصبهاني، وليكون واحداً من هذا البيت كتابةً، وروايةً، وأدبًا.

وأتمّ أبو الفرج- وهو الآن صبيّ- مرحلة التأدب، فتعلم القراءة، والكتابة، وحفظ شيئًا من القرآن الكريم، وشيئا من الحساب أهّله فيما بعد أن يتعلم حساب الهند الذي نهى الجاحظ عن تعليمه للصبيان، والذي أهله (أعنى أبا الفرج) أن يقول عن مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب"... أما ما تقوله العامة إنه قتل يوم الاثنين فباطل... وكان أول المحرّم الذي قتل فيه يوم الأربعاء، أخرجنا ذلك بالحساب الهندي من سائر الزيجات، وإذا كان كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين" [3].

أقول: تعلّم حساب الهند، وسمع شيئا من الحديث النبويّ الشريف من شيخين كوفيين- كما مرّ بنا- هما: الحضرمّي، والقتّات، ولكن محصوله من الحديث الشريف لم يكن شيئًا ذا بال[4]، ولعل اهتمامه بأخبار شهداء البيت النبوي وهو يسمع في الكوفة أخبارهم، وما أحاط بمصارعهم، ثم وهو يسمعها من الطبري في بغداد كان أكثر من اهتمامه بالحديث الشريف، ومن هنا قال عنه الذهبي موجزاً كلّ قيمته في الحديث: "أكبر شيخ عنده مطين، ومحمد بن جعفر القتّات.»

ولعلّ قلّة اهتمامه بالحديث الشريف تومئ إلى أن الصبيّ لم يكن مستعداً في نفسه وفي تربيته الموسرة أن يكون متدينًا شديد التديّن، فهو إلى رقّة التديّن أقرب منه إلى التزمّت والاستقامة. فإذا وافقنا أنه جاء إلى بغداد "سنة ثلثمائة أو قبلها بقليل" [1] لأن في شيوخه البغداديين من مات في السنة نفسها، فمعنى هذا أنه ناهز الحلم أو بلغه وهو في الكوفة تلك المدينة التي عرفت من ديارات النصارى وخمورها مثل معرفتها بمساجد المسلمين وصلواتها، وعرفت من دور الغناء مثل معرفتها من حلقات العلماء، أفترى أن الفتى امتنع عن زيارة تلك الديارات وغشيان تلك الدور؟ إنه إن يكن امتنع عنها خيفةً من رقابة أبيه فما أظنه امتنع عن سماع أخبارها، والتلذذ بهذا السماع، إذ ظلّ يحن

إلى ديارات النصارى المحيطة ببغداد- بعد أن أقام فيها- ويغشاها[2]، حتى ألفّ كتابًا في "الديارات" وآخر في "الخمّارين والخمّارات" [3].

ويهجر آل الأصبهاني الكوفة إلى بغداد لأسباب لانعلمها، ولعلّ أن يكون في هذه الأسباب أن بدأت ثورة القرامطة في سواد الكوفة، وقد بلغ الحسين بن زكرويه القرمطي من القوّة في سواد الكوفة أنه هاجم في المحرم من سنة 294 "قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قدرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير، وقتل من الحاج نحو عشرين ألفًا... "[4] وهذا يعني أنّ السبب الذي دعاهم إلى اتخاذ الكوفة مسكنًا أول الأمر قد انتفى؛ فقد اضطرب حبل الأمن فيها، ولم تعد وقفًا على الشيعة الزيديّين- وآل الأصبهاني زيديّون- وإنما صار الإسماعيلون ومنهم القرامطة أصحاب كلمة، وثورة فيها. هذا سبب، وأما الآخر فلعله أن الفتى وأباه رأيا أن لم يعد في وسع الكوفة أن تمدّ الصبي بعلم أوسع مما أمدّته به، فليس في الكوفة- خلال القرن الثالث- نحوي كبير، ولا لغوي كبير، حتى لقد بلغ الأمر بشاعر من شعرائها أن يقول: إنه ربما يضطر أن يهجر معاني مليحة تجيئه لأنه يشك في لغتها وفي إعرابها[1]، ولم يكن هذا الشاعر- وهو علي بن محمد الحماني- ملومًا لأنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث فيها، ولم يكن يومئذٍ من حلقات العلماء الكبارشيء فيها، إذ هاجر علماؤها الكبار إلى بغداد، ولعل هنالك غير هذين السببين الظاهريْن من الأسباب الخفيّة مالانعلمه، ولاتعلمه كتب التراجم ومصنفات المؤرخين.

وجاء الفتى هو وأبوه إلى بغداد في مطلع القرن الرابع- كما قلنا- أوقبله بقليل، وقد تشوقت نفس الفتى الى حلقات العلماء فيها، ومجالس الغناء، فاتخذ له فيها داراً "على دجلة في المكان المتوسِّط بين درب سليمان ودرب دجلة، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي" [2] ولانعلم على وجه اليقين إن كان اشتراها في حياة أبيه أو بعد موته، ولكننا نعلم أن موقعها مما لايسكن فيه -كما هو ظاهر الحال- إلاّ الاثرياء الموسرون، فجاره البريدي وزير، ودرب سليمان نفسه هو درب سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

ويبدوا أنه إنما سكن هذه الدار، لا لأنّه موسر فحسب، ولكن لأنه شيعي؛ فقد انقسمت بغداد في هذا القرن - وقد صارت نذر الفتنة الطائفية التي فرّ منها أبو

صاحبنا إلى الكوفة واقعًا دمويّاً- إلى جانب يغلب على سكانه التسنّنُ وهو الرصافة التي هي الجانب الشرقي من بغداد وجانب آخر يغلب على أهله النشيُّعُ وهو الكرخ الذي هو الجانب الغربي من بغداد[3].

ولكن الفتى الشيعيّ لم يكن متعصّباً، فقد أخذ عن شيوخ مذاهبهم غير مذهبه، وعن آخرين مذهبه مثل مذاهبهم(*) فلم يذم هؤلاء على مذاهبهم، ولم يحمد أولئك بما يعتقدون، فهو يروي عن محمد بن جعفر الطبريّ المتوفى سنة 310هـ صاحب "تاريخ الأمم والملوك" والتفسير المشهور، الذي "كان له مذهب في الفقه اختاره لنفسه[2]، والذي "دفن ليلاً خوفًا من العامة.." [3]، ويأخذ عن إسماعيل بن يونس الشيعي[4]، ثم لايمنعه مذهبه الشيعي، ولا أخذه عن شيوخ من الشيعة من الأخذ عن محمد بن حيى الصولّي- ورواياته عنه في الأغاني عديدة- هذا الصولي الذي توفي مستتراً بالبصرة لأنه روى خبراً في عليّ عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله" [5]

ولقد جعلت قبل قليل في أسباب هجرة الفتى إلى بغداد خلّو حلقات الكوفة من عالم كبير في اللغة أو النحو يأخذ عنه، وساقني إلى ذلك فضلا عن معرفتي بالكوفة- وهي معرفة متواضعة- أنني رأيت جلّ شيوخ أبي الفرج في بغداد من الذين اتصل بهم وأخذعنهم، وقرأ عليهم هم من اللغويين النحاة، فأخذ عن أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي المتوفى في سنة 321 هـ، وقد كان "إمام عصره في اللغة والأدب والشعر والأنساب"[6].

وأخذ عن أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري المتوفى سنة 328هـ وقد "كان من أعلم الناس، وأفضلهم في نحو الكوفيّين، وأكثرهم حفظاً للّغة، وكان في نهاية الذكاء والفطنة، وجودة القريحة، وسرعة الحفظ، وكان يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب، وأكثر ما كان يمليه من غير دفترٍ ولا كتاب.."[7].

وأخذ عن إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بـ "نفطويه" لقبوه بذلك، لدمامته، وقد "كان عالماً بالعربية، واللغة، والحديث، صادقًا فيما يرويه حافظًا للقرآن، فقيها على مذهب داود الظاهريّ... وكان محله في مسجد الأنباريين بالغزوات، وتوفي في صفرٍ

لستٍ خلون منه سنة 323هـ"..."[1]

وأخذ عن الأخفش الصغير أبي الحسن علي بن سليمان بن الفضل "وكان من أفاضل علماء العربية.. وتوفي ببغداد سنة 315 هـ وقيل سنة 316 هـ" [2] وقد لقيه- كمايبدو لي- بعد عودته من حلب؛ لأن الأخفش- كما يقول ياقوت الحموي- "قدم... مصر في سنة سبع وثمانين ومائتين، وخرج منها سنة ثلاثمائة إلى حلب" [3] ثم عاد إلى بغداد فبقي فيها حتى وفاته.

وأخذ- كما قلت- عن محمد بن جرير الطبريّ، ولابّد أن يكون قد أخذ عنه شيئًا من التاريخ، وشيئًا آخر من التفسير فقد "كان يختلف إليه.. يقرأ عليه كتبه" [4] في ذاره.

وحدّث عن مجمد بن جعفر الصيدلاني، و"كان صهر أبي العباس المبرِّد على ابنته، ويلقّب برمة، وكان أديبًا شاعراً..." [5].

وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيديّ المتوفى سنة 310 هـ، فوصفه في الأغاني بقوله: "... كان فاضلاً عالمًا ثقة فيما يرويه، منقطع القرين في الصدق وشدّة التوقّي فيما ينقله، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علمًا كثيراً، فسمعنا منه سماعًا جمًّا" [6]. وقد قرأ عليه أبو الفرج "أخبار أبي كلدة ونسبه، وديوان شعره، كما قرأ عليه" وعلى الأخفش كتاب النقائض" [7].

وأخذ عن محمد بن خلف وكيع صاحب كتاب "أخبار القضاة" وهو مطبوع متداوَل، كما أخذ عن محمد بن خلف المرزبان المتوفى في سنة 309هـ. "وكان حافظًا للأخبار، والأشعار، والملح، وكان فاضلاً بليغًا مؤرِّخاً عالماً بمجاري اللغة... وكان أحد التراجمة، ينقل الكتب الفارسية إلى العربية له أكثر من خمسين منقولاً من الفرس..." [8] وأجازه رضوان بن أحمد الصيدلاني أن يروي عنه، فقد ذكره في كتاب "الأغاني" قائلا: "وذكر رضوان بن أحمد الصيدلاني فيما أجاز لي روايته عنه.. [1]

وأخذ عن أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحمي المتوفي سنة 305هـ، وأبو خليفة هذا من أهل البصرة، وقدولي القضاء فيها [2]، ولا أعرف إن كان أبو الفرج قد أخذ عنه مشافهة"، إذرأيته في "الأغاني" يروي عنه فيقول : "أخبرني أبو خليفة" [3] مرّة، ويروي

عنه مرّة أخرى إجازةً، ومرّةً ثالثة مكاتبة، على أنني أعرف أنّ أبا خليفة قد أجازه أن يروي عنه، وأن أبا الفرج كان يكتب إليه فيجيبه. فهو يقول في موضع من "الأغاني": "أخبرني أبو خليفة إجازةً عن محمد بن سلاّم... [4] ويقول في موضع آخر: "كتب إليّ أبو خليفة الفضل بن الحباب، أخبرنا محمد بن سلاّم..." [5] ومهما يكن من أمر فلا بدّ أن يكون قد أخذ عنه فضلاً عن اللغة، والأشعار والأنساب كتاب خاله ابن سلام الجمحي: "طبقات فحول الشعراء" فقد كان أبو خليفة يرويه عن خاله، وقد وصل إلينا الكتاب من طريقه.

ولا أريد أن أطيل في تعداد من أخذ عنهم أبو الفرج، ومن تلمذلهم، ومن روى عنهم، فلو قلت إن ذلك أمر صعب لما بالغت. ولكنني أريد أن ادع اللغة والنحو والأدب، والشعر، والأنساب جانبًا لأقف على أساتذته في الغناء وفي معرفته طرقه، لاسيما ونحن نريد أن نعرض- فيما بعد- إلى كتاب الأغاني، ولقد وقف قبلي على هذا الجانب، فجلاه جلاءً حسنًا الدكتور خلف الله، ولكنه رأى أن يعدّ من أساتذته الذين تأثر بهم من لم يرهم، ولم يسمع منهم، وإنما تلمذ على كتبهم لاسيما إسحق الموصلي[6] وإذا كان الإعجاب تلمذة فأشهد أن أبا الفرج معجب غاية الإعجاب بإسحق، وما أشك في أنه تأثر به وبما سمعه من الألحان التي تروى عنه، وإن رأى أن كتابه "الأغاني الكبير" منحول عليه؛ فقد روى ابن النديم قال: "حدّثني أبو الفرج الأصبهاني قال: أخبرني أبو بكر محمد بن خلف وكيع قال: سمعت حماد بن إسحق يقول: ما ألف أبي هذا الكتاب قطّ، يعني كتاب (الأغاني الكبير) ولا رآه... وقال لي أبو الفرج: هذا سمعته من أبي بكر وكيع حكاية فحفظته واللفظ يزيد وينقص." [1]

أما أنا فأستطيع أن أتخيّل أن ليس أستاذه هو إسحاق -كما يذهب إلى ذلك الدكتور خلف الله- وإنّما هو السماع والتذوّق لدى غشيان مجالس الغناء، فلابّد أن يكون أبو الفرج قد بلغ من الإعجاب بما يسمعه من غناء في بغداد، وربما في الكوفة مايدرينا؟ بحيث سعى إلى أن يتعلم أصول هذا الفن على أصحابه، وأصحاب الصّنعة فيه الذين منهم إسحاق. ولعلّ تلمذته لجحظة البرمكّي، وطول ملازمته إياه كانا من قبيل ذلك؛ إذ لم يلزم أبو الفرج أستاذاً من أساتيذه، كما لزم جحظة، ولم يتبسط معه شيخ من شيوخه

كما تبسّط جحظه، حتى يخيل لقارئ أخبارهما أنهما كانا صديقين أكثر من كونهما أستاذاً وتلميذاً. ولعلّ مجالس الغناء والشرب هي التي أزالت الحجب التي تقوم في العادة بين التلميذ وأستاذه.

وأنا لا أقول هذا؛ لأن الدكتور خلف الله لم ينبّه الى هذه الصحبة، أو إلى ذلك السماع، وإنما أردت أن أضع الحصان - كما يقولون- أمام العربة.

وإذن، نقول: إن من الشيوخ الذين أخذ عنهم الغناء جحظة البرمكي.

وجحظة هذا هو "أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى... بن برمك، شاعر، مغنّ، مطبوع في الشعر، حاذق بصناعة غناء الطنبور... توفي بواسط سنة 326 هـ وقيل سنة 324 هـ [2] ويدلنا تأريخ وفاته أن أبا الفرج لزمه زهاء ربع قرن من الزمن ولابد أن يكون قد قرأ- فيما قرأ عليه- كتابه الموسوم بـ "كتاب الطنبوريين"، فقد روى عنه في كتاب الأغاني كثيراً بقوله: "وكان مذهبه- عفا الله عنّا وعنه - في هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه، وكان يجب عليه ضدّ هذا.. "[1]، أما من كتب غيره، فقد قرأ عليه كتاب أستاذه - أعني أستاذ جحظة في الغناء، وهو أبو حشيشة[2].

ومن أساتذته الذين أخذ عنهم الغناء حرميّ بن أبي العلاء، وإبراهيم بن القاسم بن زرزور، وقد "كان يسمعه وهو يغني بعض الأصوات" [3]

ومن الذين أخذ عنهم أبو الفرج عبد الله بن المتوكل، وعجائز المغنيات اللائي أدركن محمد بن أحمد بن يحي المكي المغني البارع مثل قمرية العمريّة[4]

ومن الدور التي كان يغشاها أبو الفرج يسمع فيها الغناء، ويأخذ عنها الثقافة الغنائية دار نفطويه أستاذة في اللغة والنحو وأيام الناس، فقد "كان لنفطويه جوارٍ يجدن الغناء ومنهن واحدة عرفت بقارئه الألحان" [5]، ودور آل المنجم، إذهم معروفون بالثقافة الغنائية؛ فقد تحدث الصاحب بن عباد عن علي بن هارون المنجم فقال: "فسمعت منه أخباراً عجيبة، وحكايات غريبة، ومن ستارته أصواتًا نادرة، مشنفة، مقرطقة، يقول في كلّ منها الشعر لفلان، والصنعة لفلان، أخذته هذه عن فلان أوفلانة حتى يتصل النسب بإسحاق أو غيره من أبناء جنسه" [6]

أما دار جحظة البرمكي وما كان يجري فيها من الغناء وأخباره، فلعلّ ذكرها يكون من نافلة القول، إذ كانت طائفة من أصدقائه تغشى داره تسمع منه غناءه(7) على أن أبا الفرج، وقد تعلّم أصول الغناء، وغشي دوره، وصارت له فيه ثقافة لم يكن ليسيغ الغناء الحديث الذي كان على عصره، وإنما بقي متمسكًا بالغناء القديم فقد رأى أنّ ممن أفسد الغناء القديم خاصةً "بنو حمدون بن إسماعيل، فإنّ أصلهم فيه مخارق، ومانفع الله أحداً قطّ بما أخذ عنه، وزرياب الواثقيّة، فإنها كانت بهذه الصورة تغيّر الغناء كما تريد، وجواري شارية وريّق. فهذه الطبقة على ماذكرت. ومن عداهم من الدورُ مثل دور عريب، ودور جواريها والقاسم بن زرزور، وولده، ودور بذل الكبرى ومن أخذ عنها، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن معاذ، ودور آل الربيع ومن جرى مجراهم فمنّ تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه، فعسى أن يكون قد بقي ممن أخذ بذلك المذهب قليل من كثير، على أن الجميع من الصحيح والمغيَّر قد انقضى في عصرنا هذا" [1]

ولعلّ تمسك أبي الفرج بالغناء القديم، والصنعة القديمة هما اللذان جعلاه يعجب بإسحاق الموصلي، ويعظّم طريقته، وصنعته.

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإنّ أبا الفرج وقد أخذ عن هؤلاء الشيوخ ما أخذ من لغة، ونحو، وسيرٍ، وأخبار، وأنسابٍ، وأدبٍ، وغناءٍ لم يكن يكتفي بما أخذ، وإنّما كان يحفظ "من آلة المنادمة شيئًا كثيراً" [2] ويلم ببعض العلوم "مثل علم الجوارح، والبيطرة، ونتف من الطب، والنجوم، والأشربة وغير ذلك" [2]، وإذا كنّا قد رأينا علمه بالنجوم في ما أخرجه من يوم مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام - كما مربنا- وماحققه من أنه لايمكن أن يكون يوم الإثنين، فقد نرى علمه بالبيطرة في مارواه أبو الحسين هلال بن المحسِّن بن... الصابيء من قوله: "قصدت أنا وأبو على الانباري وأبو العلاء صاعد دار أبي الفرج لقضاء حقه، وتعرّف خبره... وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا، فدقّ الباب دقاً عنيفًا حتى ضجر من الدّقِ وضجرنا من الصبر، قال: وكان له سنّور أبيض يسميه يقفا، ومن رسمه إذ قرع الباب قارع أن يخرج ويصيح إلى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفتح الباب أو هو نفسه، فلم نر السّنّوْر في ذلك اليوم، فأنكرنا الأمر، وازددنا تشوقًا الى معرفة الخبر. فلما كان بعد أمدٍ طويل صاح صائح أن (نعم) ثم خرج

أبو الفرج ويده متلوثة بما ظنّناه شيئاً كان يأكله فقلنا له: عققناك بأنّ قطعناك عمّا كان أهمّ من قصدنا إيّاك. فقال : لاوالله ياسادتي ما كنت على ماتظنّون، وإنما لحق يقفًا- يعني سِنَّوْرَه قولنج، فاحتجت إلى حقنه فأنا مشغول بذلك.." [1]

وأيّاً كان مقدار ضبط أبي الفرج تلك العلوم فإن الذي يهمنا من شخصيته الآن جانبها الأدبي، فقد روي أنه " كان يحفظ من الشعر، والاغاني، والأخبار والآثار، والحديث المسند، والنسب، مالم أرقطّ من يحفظ مثله" [2]. هكذا قال معاصره التنوخي عنه. ولعل في هذا القول مايفسِّر لنا بكوره في التأليف إذ لم تجئ سنة ثلاث عشرة وتلثمائة حتى وجد أبو الفرج نفسه منتصباً للتأليف؛ فقد فرغ من تأليف كتابه "مقاتل الطالبيين"- كما يقول هو- في شهر جمادى الأولى من تلك السنة[3].

وإذا كان لهذا التأليف من معنى- ولابد أن يكون- فهو أنه بعد إذ انتفع من علم أشياخه في التاريخ والأخبار وماإليهما أنس في نفسه القدرة على أن ينفع الآخرين بعلمه، فيكون له تلاميذ، لامن بغداد وحدها وإنما من الأندلس أيضاً. وعلى أننا لانعلم متى انقطع عن شيوخه، ومتى انتصب لتلاميذه على وجه اليقين إلاّ أنه بإمكاننا أن نقدّر أن ذلك كان - على أبعد تقدير- في العقد الثالث في القرن الرابع، إذ ليس بين شيوخه من توفي بعد هذا العقد؛ فقد توفي آخر شيوخه أبو بكر بن الأنباري- كما ذكرت- سنة ثمان وعشرين وثلثمائة.

فمن تلاميذه- كما يقول الخطيب البغدادي- الدار قطني أبو الحسن علي بن عمر.. البغدادي" كان عالماً حافظًا فقيهًا... وقد انفرد بالإمامة في علم الحديث في عصره... ويحفظ كثيراً من دواوين العرب، منها ديوان السيِّد الحميري..." [5] وكانت ولادة الدار قطني سنة 306 هـ ووفاته سنة 385هـ، في ذي القعدة منها وقيل ذي الحجة.

ومنهم- كما يقول الخطيب أيضاً- أبو إسحاق الطبريّ، إبراهيم بن أحمد بن محمد وأبو إسحاق هذا أحد من روى كتاب أبي الفرج: "مقاتل الطالبيين" [6] وهو المعروف بـ (تيزون) " كان من أهل الفضل والأدب، وسكن بغداد، وصحب أبا عمر الزاهد... وأخذ عنه وعن غيره علماً كثيراً" [7].

ومن تلاميذه أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ، وقد قدم من الأندلس- وهو شيخ إلى بغداد "لطلب العلم، ولزم أبا الفرج..." [1] ثم عاد إلى الأندلس فتوفي فيها سنة 378 هـ.

ومنهم أيضا ابن دينار الكاتب علي بن محمد بن عبد الرحيم، المولود سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، والمتوفى سنة تسع وأربعمائة، وقد لقي أبا الطيب المتنبي " وسمع منه ديوانه" [2]، وشاركه "في أكثر ممدوحيه كسيف الدولة ابن حمدان، وابن العميد، وغيرهما" [2]، وقرأ على أبي الفرج "جميع كتاب الأغاني" [3].

ومن تلاميذه أبو علي المحسِّن بن أبي القاسم علي... التنوخي- وإن لم ينصّ أحدٌ على تلمذته له- فقد رأيته يروي عن أبي الفرج روايات أجدها في مقاتل الطالبيين حيناً، [4] وفي "الأغاني" حيناً آخر[5]، والتنوخي هذا ولد سنة سبع وعشرين وثلثمائة بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة أربع وثمانين وثلثمائة، [6] وله من الكتب: الفرج بعد الشدّة، ونشوار المحاضرة، والمستجاد من فعلات الأجواد.

ومنهم أيضاً أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي " راوية المتنبي، وأحد الأئمة، والأدباء والأعيان، والشعراء، خدم سيف الدولة، ولقي المتنبي... وجالس الصاحب بن عباد، ولقي أبا الفرج الأصبهاني، وروى عنه..." [7]

ومنهم أيضًا إبراهيم بن مخلّد بن جعفر... "أبو إسحاق المعروف الباقرحي... وكان صدوقا، صحيح الكتاب، حسن النقل، جيد الضبط، ومن أهل العلم والمعرفة بالأدب.."[8] وكانت ولادته في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، "وتوفي في وقت العصر من يوم الأربعاء السابع عشر من ذي الحجة سنة عشرٍ وأربعمائة" [9]

ومنهم علي بن أحمد، "أبو الحسن المعروف بابن طيب الرزاز، سمع أبا عمرو بن السماك،... وأبا عمر الزاهد... وأبا الفرج الإصبهاني... وكفّ بصره في آخر عمره، وكان يسكن الكوخ، وله دكان في سوق الرزازين. وكان الرزاز... كثير السماع، كثير الشيوخ، وإلى الصدق ماهو، سألته عن مولده فقال: في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ومات في ليلة الأربعاء السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وأربعمائة" [10].

هذا ما كان من أمر حياة أبي الفرج الأدبيّة، أما جوانب حياته الأخرى فنعرف منها أنه كان - كما سبق أن ذكرت- شيعيًا. وأريد الآن أن أعيد القول في مذهبه؛ لأنني رأيت المؤرخين يوحون بأنه كان يتشيّع وحده من بين أهله، فهم كثيراً مايقولون في ترجمته: إنه"كان أمويّاً، وكان يتشيّع" [1]، وإنه "من العجائب أنه مروانيّ يتشيّع"[2]، وإنه "كان شيعيّاً وهذا من العجب" [3] وما إلى ذلك. وإذا كان المؤرخون يوحون بذلك؛ فإن خير من درس أبا الفرج من المعاصرين- أعنى به الدكتور خلف الله- قد قال ذلك من دون لبسٍ حين قرّر " أنّ أبا الفرج قد ورث تشيّعه عن أسرة أمّه" [4]

وأريد أن أقول بادئ ذي بدء: إنه لايهمني كثيراً أن يكون أبو الفرج الإصبهاني نصرانيًا، أو مجوسيًا، أو مسلمًا شيعياً، وإنما الذي يهمني أن أقرّر الحقيقة التأريخية كما تبدولي من خلال حياة أبي الفرج نفسها، فأقول:

إن الذي يتهيّأ لي أن الأمر لم يكن كذلك، وأن أبا الفرج لم يتشيّع وحده دون أعمامه وعشيرته الأقربين؛ وذلك لسببين أولهما مارواه أبو الفرج نفسه إذ قال: "حدثني حكيم بن يحيى، قال: كان الحسين بن الحسين بن زيد شيخ بني هاشم، وذا قعددهم، وكانت الأموال تحمل إليه من الآفاق. قال: فاجتمعنا يوماً عند جدّك أبي الحسن محمد بن أحمد الأصبهاني، وجماعة من الطالبيين، فيهم الحسين بن الحسين بن زيد بن علي ، ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي، وأبو هاشم داود بن القاسم الجعفري، فقال جدك للحسين: يا أبا عبد الله، أنت أقعد ولد رسول الله صلى اللهّ عليه وآله كلّهم، وأبوهاشم أقعد ولد جعفر، وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وجعل يدعو لهما بالبقاء..."[5]

إذ أنا استبعد أن يشمّ- لا أن يجالس- شيخ بني هاشم الحسين بن الحسين رجلاً أمويّاً مثل جدّ أبي الفرج لولم يكن شيعيّاً. على أن الأمر لم يقف عند المجالسة وإنما بلغت المودّة بين شيوخ بني هاشم، ومحمد بن أحمد الأصبهاني بحيث يجتمع عنده أقعد ولد علي بن أبي طالب، وأقعد ولد جعفر بن أبي طالب، وبحيث يدعو لهما بالبقاء. على حين يبخل الشريف الرضي بشيء من ماء عينيه على الخليفة عمر بن عبد العزيز- وهو من هو صلاحًا وتقى- لالشيء إلاّ لأنه أمويّ النسب:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتىً من أميّةٍ لبكيتُك
أنت نزّهتنا عن السبّ والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك

هذا عندي سبب، أما السبب الثاني فهو أنني أستبعد أن يوافق آل ثوابة وهم من الأسر "الشيعيّة التي نالها الاضطهاد لتشيّعها، ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء"[1]، أقول: أستبعد أن يوافق آل ثوابة أن يزوّجوا ابنتهم من رجل أموي هو الحسين بن محمد الاصبهاني لولم يكن هو وأبوه شيعيين، بل لعل الذي جمع بين الاسرتين فتصاهرتا- من بين ماجمع- كونهما أسرتين شيعيتين.

وصفوة القول عندي أنه في حياته المذهبية، كان شيعياً من أسرة شيعيّة على أنني لا أعرف- على وجه الدّقة- جدّه الأول الذي اعتنق التشيّع، فورثت عنه هذه الأسرة الأموية مذهبه.

على أنني أريد أن أنبه إلى أن تشيعه لم يكن ليتعدى حب آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وماهو إلى ذلك، ولكنّ هذا الحبّ لم يمنعه من أن يروي عن سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب من الحديث مالايليق بامرأة من عامة الناس وليس بامرأة من آل بيت النبوّة[2]، هي سكينة بيت الحسين.

وأريد أن انبّه إلى أنه كان - كما قلت- رقيق الدين، وأنه أقرب إلى المجون منه إلى الصلاح والتقوى، فقد كان أبو الفرج من ندماء الوزير أبي محمد المهلّبي "منقطعًا إليه، كثير المدح له، مختصاً به" [3]، وبحسبي من مجالس الوزير المهلبي أن أنقل ماروي عنه من أن بعض القضاة كانوا "يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة، وهم أبن قريعة وابن معروف والقاضي الإيذجي وغيرهم، ومامنهم إلاّ أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس، وطاب المجلس، ولذ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلّبوا في أعطاف العيش بين الخفّة والطيش، ووضع في يد كلّ واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال مملوء شرابًا قطر بليا وعكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرّب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون بأجمعهم، وعليهم المصبغات ومخانق البرم، ويقولون كلما كثر شربهم هر هر..."[1]

ولابدّ أن حال أبي الفرج لم تكن لتختلف في الخلاعة عن القاضي الإيذجي أو سواه، بل إن لدينا خبراً يرويه ياقوت نفسه يدلنا على أنه كان من التبسّط بين أبي الفرج والمهلبي ماهو أكثر من هذا، في مجالس السكر [2]. وحسبك من هذا أن هجا الأصبهاني الوزير المهلبي - في هذا المجلس- بصدر بيتٍ فاحشٍ أجازه المهلبي بما هو مثله في الفحش، حتى لكأن الأمر من طبيعة العصر نفسه.

وإذاً، لم يكن أبو الفرج بدعاً لافي مجونه، ولافي سكره، ولافي حبه الغلمان، وإنما هو إبن عصر من أئمته في المجون الحسين بن الحجاج، وابن سكرة الهاشمي.

ومن جوانب حياته الأخرى أنه كان صديقاً حميما للوزير المهلبي قبل أن يتولى الوزارة وبعدها "إلى أن فرّق بينهما الموت" [3]، ولعلّ هذه الصحبة هي التي جعلت الوزير المهلبي لايكلف أبا الفرج بشيء من العمل يشق عليه، فاختاره "في كلّ شيءٍ مريح" [3]. ولعلّ هذه الصحبة هي التي قربته من معز الدولة البويهي فكان "نديمًا له" [4].

ولابد لي هنا أن أعرض إلى جانب من جوانب أبي الفرج بدا القدماء والمعاصرون معاً متفقين عليه كما لو أنه من المسلّمات، أما ذلك الجانب فهو ماروي من أن أبا الفرج "كان وسخًا قذراً لم يغسل له ثوبًا منذ فصّله إلى أن قطّعه..."[1]، وأنه بلغ من هذه الوساخة، وقلّة المبالاة فيما يفعله أنه "كان جالسًا في بعض الأيّام على مائدة أبي محمد المهلبي فقدمت سكباجة وافقت من أبي الفرج سعلة، فبدرت من فمه قطعة من بلغم فسقطت وسط الغضارة، فتقدم أبو محمد برفعها وقال هاتوا من هذا اللون في غير الصحفة، ولم يبن في وجهه إنكار، ولا استكراه ولا داخل أبا الفرج في هذه الحال آستحياء ولا انقباض"[2]

وينبغي لي أن أقول مرّة أخرى كما قلت في مذهبه: إنه لايهمني أن يكون وسخاً أنيقاً، حييا أو غير حييٍ، بقدر ما يهمني أن أقرر أن في نفسي شيئاً من صحة هذه الأخبار، مردُّه أنها وردت في كتاب أبي الحسين هلال بن المحسن الصابئ "الذي ألفه في أخبار الوزير المهلبي" [3]، فما يمتنع - والحال تلك- عليه أن يصطنع المناقب للوزير، وأن يصطنع له شدّة توقّيه في حفظ حرمة الصحبة التي بينه وبين أبي الفرج، وإلاّ فإنه من العجب العجاب أن يصبر المهلبي على أبي الفرج حتى "لم يبن في وجهه إنكار، ولا

استكراه" والصابئ نفسه يروي لنا عن تأنق المهلبيّ في مطعمه، ونظافته فيه أنه كان لايدخل ملعقة يأكل بها إلى فمه مرّتين فكان "إذا أراد أكل شيء بملعقةٍ كالأرز واللبن وأمثاله وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين بملعقةٌ زجاجاً مجروداً- وكان يستعمله كثيراً- فيأخذ منه ملعقةً يأكل بها من ذلك اللون لقمةً واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية، لئلاً يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية... [4]

أفترى أن المهلبي الذي يتوقي ماعلق في ملعقةٍ من فمه هو يصبر على "قطعة من بلغم" تسقط من فم أبي الفرج ثم لايبين "في وجهه إنكار ولا استنكار"؟ ثم تبلغ القحة من أبي الفرج- وهو أعرف الناس به وألزمهم له - بحيث لم يستح ولم ينقبض ؟ إن في المهلبي إذن لصبراً يعجب منه التقاة الصابرون، وإن في أبي الفرج من الوقاحة وسوء الأدب مالم يبلغه العتاة الوقحون. ولم يكن المهلبي -وهو الحديث النعمة- كذلك، ولم يكن أبو الفرج أيضاً.

هذه واحدة. أمّا الثانية فإننا قد رأينا أن أبا الفرج قد نشأ في أسرةٍ موسرةٍ من طرفيها، تمتهن الكتابة وتغشي دواوين الدولة من جناحيها- إذ عائلة الأب من الكتاب، وعائلة الأم كذلك- فإذا لم يكن الطفل الذي ينشأ في مثل هذه الأسرة بين الأصبهانيين وآل ثوابة قد تربّى علي النظافة، واللياقة وحسن الأدب فعلى ماذا قد تربّى؟

وإليك الثالثة وهي أنّ أبا الفرج كان - كما رأيت- من ندماء معزّ الدّولة البويهيّ. فهب أنّ المهلبي كان يصبر على وساخته، وسوء أدبه لطول الصحبة ولكن قل لي ما الذي كان يرغم معزّ الدولة على الصبر عليهما؟

ثم ألم يقل مؤرخوه إنه "يحفظ من آلة المنادمة شيئاً كثيراً"؟ [1] فإذا لم يكن من آلة المنادمة نظافة الثوب، وحسن الأدب، وظرف الحديث فكيف تكون؟ هذه أمور تجعلني أشك في صحة ماوراه الصابئ، وأمر آخر أضيفه إليها هو أنني رأيت له قصيدتين يطلب فيهما من الوزير المهلبي ثياباً، [2] أفترى أن الذي "لم يكن ينزع درّاعة إلاّ بعد إبلائها وتقطيعها" [3] يكون من همّه، ومن وكده، ومن دأبه أن يطلب الثوب؟

كلُّ هذا يجعلني أظنّ أن أبا الفرج قد ذهب ضحيّة اصطناع المناقب للوزير المهلبي، وربّما ضحية الحسد، والغيرة مما بلغ من منزلة أدبية، ولكن ذلك لايجعلني أزعم أنه كان

قد أوفي على الغاية من حسن المظهر، وعلى المنتهى من حسن الأدب. إذ لم يشر معاصروه- ومنهم الثعالبّي- إلى شيء في مظهره مما يستشفّ منه أن مظهره كان كمظهر الآخرين مألوفًا. وأما أدبه فبحسبه منه حديث الحسن بن الحسين النعّال "قال: قال أبو الفرج الأصبهاني: بلغ أبا الحسن جحظة أن مدرك بن محمد الشيبانيّ الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره وكتب إليّ:

أبا فرجٍ أهجى لديك ويعتدى ... عليّ فلا تحمى لذاك وتغضب؟
لعمرك ما أنصفتني في مودّتي ... فكن معتباً. إنّ الأكارم تعتب

قال أبو الفرج: فكتبت إليه:

عجبت لما بلغت عنّي باطلاً ... وظنكَ بي فيه لعمركَ أعجبُ
ثكلت إذاً نفسي، وعزّي، وأسرتي ... بفقدي ولا أدركتُ ما كنت أطلبُ
فكيف بمن لاحظّ لي في لقائه ... وسيان عندي وصله والتجنُّبُ
فثق بأخٍ أصفاك محض مودّةٍ ... تشاكل منها مابدا والتغيُّبُ" [1]

فالأبيات تومئ إلى حسن أدبٍ، وإلى وفاء في الصحبة.

على أنّ حسن أدبٍ أبي الفرج لم يكن يمنعه من أمرين أحدهما إثياره أن يقضي حوائجه من مال غيره، فقد رأيناه يطلب ثيابه من الوزير المهلبي، ونراه الآن يطلب من القاضي التنوخي- زميله في مجلس المهلبّي- حبراً، ويزعم إليه - في أرجوزة- أنه لم يجده يباع ليشتريه، كما لو أنّ في الحبر ندرةً. [2] ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أتّهمه بالبخل لأنّ أحداً من القدماء لم ينص على ذلك. ولعلّ هذه الخلّة في أبي الفرج هي التي جعلت المهلبي يمطله في أحيان مما اضطرّ معه أبو الفرج أن يهجوه حينًا هجاءً لم يكن يقوله إلاّ في السرّ[1]، وأن يعاتبه حينًا عتابًا شديداً هو أقرب إلى الهجو في مثل قوله:

أبعين مفتقر إليك رأيتني ... بعد الغنى فرميت بي من حالق
لست الملوم، أنا الملوم لأنني ... أمّلتُ للإحسان غير الخالق[2]

أما خلّته الثانية فهي بذاءة لسانه في الهجاء حتى إن الناس كانوا: "يحذرون لسانه. ويتقّون هجاءه..."[3]. ولم أرله من الهجاء العفيف ما أستطيع نقله إلى القارئ الكريم إلاّ قوله في أبي سعيد السيرافي النحويّ المعروف:

لست صدراً، ولا قرأت على صد ر ، ولا علمك .بكيٌ بكاف
لعن الله كلَّ شعرٍ، ونحوٍ وعروضٍ يجيءُ من سيرافِ [4]

ويبدو أنّ أبا الفرج أعسر بعد إيْسار، فقد رأيناه، وقد انحدر إلى البصرة يشكو ما آل إليه حاله حتى إنه ليسكن بيتًا من بيوت الكراء بعد أن كان يملك "منزلاً مبهجًا"[5].

ولعل ذلك كان بعد وفاة الوزير المهلبي فقد جاء في تجارب الأمم 6: 197 أنه "قبض على عيـاله وولده ومن دخل يومًا إليـه مـثـلاً، وصـودروا حـتى المكارين والملاحين...واستفظع الناس ذلك". فلعل أبا الفرج أن يكون صودر من بينهم فانحدر إلى البصرة. فإذا صح ذلك يكون قد انحدر سنة 352 إليها فقيراً مصادراً.

بقي عليّ أن أشير إلى سرعة بديهة أبي الفرج، وذكائه في ردّ مالا يصدّقه من الأمور بالفكاهة البارعة، والدُّعابة الحلوة، ولي في ماجرى بينه وبين أبي القاسم الجهني القاضي في مجلس الوزير المهلّبي[6] مايدلّ دلالة واضحةً على ذلك.

ولا أريد أن أفيض في جوانب حياته أكثر مما أفضت، ولكنني أريد أن أتحقق من تاريخ وفاته؛ فقد أجمع المؤرخون لحياته- ماعدا ابن النديم- أنه توفي "يوم الأربعاء، لأربع عشرة خلون من ذي الحجة سنة ستٍ وخمسين وثلثمائة... وهذا هو القول الصحيح في وفاته" [1]. وقول الخطيب البغدادي إنّ "هذا هو القول الصحيح في وفاته" يدلنا على أن القدماء أنفسهم كانوا في أخذٍ وردٍّ من سنة وفاته، ولعلّ أول من نبهّنا إلى ذلك منهم ياقوت الحموي حين ذكر سنة وفاته المتفق عليه بين المؤرخين فقال: "وفاته هذه فيها نظر، وتفتقر إلى التأمّل..."[2]

أما الأسباب التي تدعو إلى هذا التأمل عنده فمن بينها قوله: "حدثني صديق قال: قرأت على قصر معزّ الدولة بالشماسية، يقول فلان بن فلانٍ الهرويُّ، حضرت هذا الموضع في سماط معزّ الدولة، والدنيا عليه مقبلة، وهيبة الملك عليه مشتملة، ثم عدت إليه في سنة اثنتين وستين وثلمائة، فرأيت مايعتبر به اللبيب..."[3] ومهما يكن من أمر فقد درج الناس أن يؤرخوا لوفاته بسنة ست وخمسين وثلثمائة ولم يشذّ عنهم - فيما نعلم- إلاّ قلة من بينهم الدكتور خلف الله، وقد بنى شكّه على أمرين أولهما أن تأريخ

وفاته المشهور لم يذكره إلا تلميذه محمد بن أبي الفوارس- وقد كان جوّالاً في طلب العلم يوم مات أبو الفرج- وثانيهما أن قول ابن أبي الفوارس لم يدوّن إلاّ بعد مدّة طويلة في تاريخ الخطيب البغدادي[4]

وأراني أوافق الحموي، وخلف الله على أن وفاته لم تكن سنة 356 هـ مضيفاً إلى أسبابهما سببا آخر هو قول أبي الفرج نفسه: "وخرجتُ أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله ماضيين إلى دير الثعالب في يوم ... من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للنزهة، ومشاهدة اجتماع النصارى ... وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش... فمضينا معها... وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك، ثم خرج إلى الشام، وتوفيّ بها، ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك..."[5]

إذ أنّ هذا النصّ - عندي- يدلّ على تأخر وفاة الأصبهاني إلى مابعد سنة 356 هـ، لأسباب منها: أن الحادثة وقعت قبل وفاة أبي الفرج المزعومة بشهور، وهو من النشاط، والمرح، وحب الحياة مالاينسجم وقول المؤرخين من أنه خلّط في آخر حياته[1].

هذه مسألة، أما الثانية فهي أنه يذكر أنه قامت عشرة بين تلك الفتاة وصديقه أبي الفتح، وأن أبا الفتح هذا قد خرج إلى الشام وتوفي بها. وكلُّ هذا معناه أنه خرج إلى الشام بعد هذه السنة أو في أثنائها أعني سنة 355 هـ ثم توفي قبل وفاة أبي الفرج، وصيغة الحديث يمكن أن تومئ إلى طوله مدّة مكثة في الشام، وإلاّ فإن العشرة بين أبي الفتح والفتاة لاتكون بيوم ويومين ولابسنة وسنتين، إن العشرة وحدها دليل على طول المدّة، فإذا نظرنا إلى أن هذه العشرة قد انتهت وأن صاحبها أبا الفتح قد مات كان لنا أن نطمئن إلى مارواه ابن النديم- وهو من معاصريه الذين رووا عنه- من أنه وفاته كانت في سنة "نيّف وستين وثلثمائة" [2]

هذا ما كان من أمر أبي الفرج، أما ما كان من أمر مؤلفاته فهي كثيرة تكاد تقارب الأربعين مؤلفا، وسأعتمد في سردها على محمد عبد الجواد الأصمعي فيما نقله عن أبي النديم وياقوت الحموي، والقفطي[3]، واضعًا زياداتي عليه بين قوسين معقوفين، وهي:

1- كتاب الأغاني الكبير. نحو خمسة آلاف ورقة

2- كتاب مجرّد الأغاني.

3- كتاب مقاتل آل أبي طالب، وطبع بطهران سنة 1307هـ، وطبع للمرّة الثانية بمطبعة الحلبي بمصر [1368 هـ- 1949م، بتحقيق السيد أحمد صقر، ومنه طبعة لبنانية في دار العرفان بصيدا بإشراف المرحوم الشيخ عارف الزين، وعنوان ا الكتاب في الطبعتين المصرية واللبنانية: مقاتل الطالبيّين]

4- كتاب التعديل والانتصاف في أخبار العرب وأنسابها... ذكره هو في كتاب الأغاني وهو كتاب جمهرة أنساب العرب.

5- كتاب تفضيل ذي الحجّة.

6- كتاب أخبار القيان

7- كتاب الأخبار والنوادر

8- كتاب نسب بني كلاب

9- كتاب أدب السماع

10- كتاب أخبار الطفيليّين

11- كتاب أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب [وقد حققه الدكتور صلاح الدين المنجد عن مخطوطة فريدة، ونشره في دار الكتاب الجديد ببيروت سنة 1972، بعنوان (أدب الغرباء) ولكاتب هذه المقالة رأي في التحقيق نشره في مجلة الأديب البيروتية في عددها الثاني من سنتها الثانية والثلاثين -فبراير 1973.]

12- كتاب مجموع الآثاروالأخبار

13- كتاب أشعار الإماء والمماليك [وقد حققه الأستاذ جليل العطية سنة 1988 ونشره بعنوان الإماء الشواعر، ولم أره، وإنما حدثني بذلك أخو المحقق الاستاذ الدكتور خليل إبراهيم العطية.]

14- كتاب الحانات.

15- كتاب الخمارين والخمارات [وبقي من أوله سبع ورقات محفوظة لدى السيد أحمد عبيد في دمش][1]

16- كتاب الديارات

17- كتاب صفة هارون

18- كتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار وهي رسالة في هارون بن المنجم [ولعل هذا العنوان والذي قبله آسمان لكتاب واحد]

19- كتاب دعوة النجار

20- كتاب أخبار جحظة البرمكي

21- كتاب نسب بني عبد شمس

22- كتاب نسب بني شيبان.

23- كتاب نسب المهالبة [ولعله كتبه لمخدومه الوزير أبي محمد المهلّبي]

24- كتاب نسب بني ثعلب

25- كتاب الغلمان والمغنين

26- كتاب مناجيب الخصيان، عمله للوزير المهلّبي في خصيين كاناله.

27- كتاب أيام العرب: ألف وسبعمائة يوم

28- كتاب دعوة الأطباء

29- كتاب تحف الوسائد في أخبار الولائد

30- جمع ديوان أبي تمام ولم يرتبة على الحروف بل على الأنواع...

31- جمع ديوان أبي نواس.

32- جمع ديوان البحتري، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما فعل بديوان أبي تمام.

33- كتاب في النغم أشار إليه في كتابه: الأغاني

34- رسالة في شرح أصوات الأغاني، أشار إليها في كتابه الأغاني...وقد ردّ فيها على يحيى المكي شيخ جماعة المغنين وأستاذهم.

35- كشف الكربة في وصف الغربة أشار إليه بروكلمان [قلت لعله هو كتاب أدب الغرباء]

36- الأمالي أشار إليه بروكلمان

37- [كتاب مانزل من القرآن في أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام(1)]

38- [كلام فاطمة عليها السلام في فدك.]

هذه هي قائمة كتب أبي الفرج. أما أهمّ كتب هذه القائمة مما وصل إلينا من كتبه فهو كتاب الأغاني لاينازعه- في بابه- منازع من سائر كتبه.

وفكرة كتاب الأغاني مبنيّة على الأصوات المائة "المختارة لأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله تعالى، وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي، وإسماعيل بن جامع، وفليح بن العوراء باختيارها له من الغناء كلّه؛ ثم رفعت إلى الواثق بالله - رحمة الله عليه- فأمر إسحاف بن إبراهيم بأن يختار له منها مارأى أنه أفضل مما كان آختير متقدماً، ويبدل مالم يكن على هذه الصفة. بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار؛ ففعل ذلك..."[1]

وهكذا وجد أبو الفرج إزاءه مائة لحنٍ هي في رأي إسحاق أفضل الألحان العربّية فرأى أن يؤرخ لهذه الألحان بعد إذ رأى أن كتاب "الأغاني" المنسوب إلى إسحاق "مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة.." [2]، فسلك طريقاً واحداً في كتابه كله هو أن يذكر الشعر الذي غني به هذا اللحن أوذاك من المائة تحت عنوان "صوت" ثم يذكر عروض ذلك الشعر أهو من الكامل أم من الخفيف أم من البسيط أم سواها؟ ثم ينتقل الى نسبة هذا الشعر لشاعره، وإلى نسبه الغناء لصاحبه، ليصل إلى تدوين موسيقي ذلك الغناء بالمصطلحات الموسيقية القديمة التي لانعرف عنها اليوم شيئاً كأنْ يقول "ولحنه المختار من الثقيل الأول بالبنصر. وفيه لبابويه خفيف ثقيل بالوسطى[3]" وما إلي ذلك. حتى إذا فرغ من ذلك كلّه انتقل الى ترجمة الشاعر،فذكر نسبه، وأخباره، ومايمت إلى حياته بسبب مما يكون قد وقع إليه واطلّع عليه، ذاكراً كلّ ذلك بسنده، وسلسلة رواته.

وبهذه الطريقة ترجم أبو الفرج لخمسمائةٍ وستة وتسعين شاعراً من العصورالجاهلية، والإسلامية، والأموية والعباسية، ولسبعة وثمانين مغنياً من العصرين الأموي والعباسي[4] عداما ذكره من أخبار الخلفاء، والوزراء، والكتاب ومن إليهم.

فلوقلت بعد هذا: إن كتاب الأغاني كنز أدبي ثمين، وثروة أدبية طائلة لما أبعدت، ولما جاوزت الحدّ، وكان الذي يماريك في هذا أحد رجلين إما جاهلاً وإمّا مجنوناً.

ولا أكاد أشك في أنّ هذه الثروة الأدبية الطائلة أثارت على أبي الفرج شيئاً من الحسد والغيرة، بمقدار ما أثارت عليه من الإعجاب مايكاد يدخل في الأساطير. فأما أهل الحسد فقدهالهم أن يأتي أبو الفرج بكل هذه الثروة روايةً، فقالوا عنه "كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة، والدكاكين مملؤة

بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلُّها منها" [1]. وأنا لاأريد أن أناقش هذا القول لأنه إذا كان يؤلف مطعنًا في أبي الفرج وفي كتبه- ومنْها الأغاني- خلال العصر العباسي، فإنه ليس كذلك في عصرنا الحاضر، وذلك أن معنى القول أنّ أبا الفرج لم يكن راوية يأخذ عن شيوخ، وإنما كان يتتلمذ للكتب التي يمكن أن يقع فيها التصحيف والتحريف ثم يزعم أنه يروي بسندٍ وأنه راوية.

والحق أنني وجدت أبا الفرج ينص على طبيعة مرويّاته، فهو يقول: "أخبرني" ويقول "حدّثني" ويسكت، فتفهم منه أنه يروي من حفظه- وهذا هوالغالب على مرويّاته- أما حين يأخذ من كتاب فإنه ينّص على ذلك وقد مرّ بنا قوله على سبيل التمثيل لا الحصر- "ونسخت من كتاب جدي يحيى بن محمد ثوابة بخطّه" أكثر من مرّة، وينصّ على إجازته إذا كان مجازاً في الرواية، وعلى المكاتبة كما فعل مع أبي خليفة الفضل بن الحباب، وينصّ على الوجادة.

وسواء أكان أبو الفرج راويةً أم ينقل مروياته عن كتب فإنه كان يعوّل "في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط، وغيرها من الأصول الجياد" [2]. وفي الحالين إننا آمنون من أن يصحف الأسماء في كتبه أو أن يحرّفها وذلك غاية مانرجوه.

ويزيد من قيمة كتابه تثبته في الراوية بألمعية نادرة، وبعلمٍ جمٍّ وافرٍ غزير؛ دالاً على علمٍ بالرجال وبالجرح والتعديل مرّةً كأنْ يقول: "أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه عن علي بن الصباح- وأظنه مرسلاً... لأنه لم يسمع من علي بن الصباح..."[1]. ودالا على معرفته بالتاريخ مرّة أخرى كأنّ يقول "أخبرني عمي قال: حدثنا أبو هفّان قال: كان بكر بن النّطاح قصد مالك بن طوق فمدحه، فلم يرض ثوابه فخرج من عنده... هكذا ذكر أبو هفّان في خبره، وأحسبه غلطاً، لأن أكثر مدائح بكر بن النطّاح في مالك بن علي الخزاعي- وكان يتولّى طريق خراسان- وصار إليه بكر بن النطّاح بعد وفاة أبي دلفٍ ومدحه..."[2]

ويدلّك أبو الفرج في أكثر من مرّة أنه دارس متفحص، وناقد متمرِّس، فمن كان في ريبٍ من ذلك فله أن يقرأ قصيدة الفرزدق التي مدح بها الإمام زين العابدين: علي بن

الحسين بن علي بن طالب عليهم السلام، والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته　　والبيت يعرفه والحلُّ والحرم

وسيرى كيف يسلّ أبو الفرج الشعرة من العجين، وكيف يخرج من أبيات القصيدة ماليس منها بذوق ثاقب.

أما دراسة أبي الفرج المتفحّصة مايرويه من أخبار فحسبي منها هذا الخبر، يقول أبو الفرج: "ونسخت هذا الخبر من كتاب جدّي يحيى بن محمد بن ثوابة بخطّه قال: حدثني الحسن بن سعيد قال "حدثني منصور بن جمهور قال: لما هجا ابن قنبر مسلم بن الوليد بعد أن أشلى لسانه قال: فجاءه عم له فقال له: ياهذا الرجل: إنك عند الناس فوق ابن قنبر في عمود الشعر، وقد بعث عليك لسانه تم أمسكت عنه. فإماّ أن قارعته أو سالمته، فقال له مسلم: إنّ لنا شيخًا وله مسجدٌ يتهجد فيه، وله بين ذلك دعوات يدعو بهن ، ونحن نسأله أن يجعله من بعض دعواته؛ فإنا نكفاه، فأطرق الرجل ساعةً ثم قال:

غلب ابن قنبر واللئيم مغلب　　لما اتقيت هجاءه بدعاء

مازال يقذف بالهجاء، ولذعه　　حتى اتقوه بدعوة الآباء

قال: فقال له مسلم: والله ما كان ابن قنبر يبلغ منى هذا كله، فأمسك لسانك عني، وتعرّفْ خبره بعد هذا. قال: فبعث - واللّه- عليه من لسان مسلم ما أسكته. هكذا جاء في الأخبار" [1]

ولعلّ مسؤولية أبي الفرج لولم يكن أبا الفرج كانت ستنتهي عند هذا الحدّ، وعهدة الخبر على ما "جاء في الأخبار"، ولكنه لم يقف عند هذا وإنما رجع إلى مناقضات ابن قنبر ومسلم بن الوليد يتسجلي صحة الخبر فقال: "وقد حدّثني بخبر مناقضته ابن قنبر جماعة ذكروا قصائدهما جميعًا فوجدت في الشعر الفضل لابن قنبر، لأن له عدّة قصائد لانقائض لها، يذكر فيها تعريده عن الجواب..."[2]

وإذن، لم تكن مروّيات أبي الفرج مما يقبله على عواهنه، فهو يخضعها الى مانصطلح عليه اليوم بالنقد التوثيقي.

ولعلي كدت أنسى ما أنا فيه من أمر حسّاد أبي الفرج فأنسي معي القارئ ماهو بسبيله، فأقول: هذا ما كان من أمر حسّاد الأصبهاني وقد هالهم مارأوا في كتبه من روايات لاتتهيّأ لأمة من الناس وليس لفردٍ واحد، فقالوا: إنه كان يذهب إلى سوق الوراقين وهي عامرة بالكتب، فيشتري شيئا كثيراً من الصحف... ثم تكون رواياته منها" ولقد كنّا نتمنّى على هؤلاء أن يدلّونا على ماصحّف فيه أبو الفرج، أو مانحله لنفسه من رواية، ولكنهم لم يفعلوا رغم أن أبا الحسن البتّي كان يقول: "لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج"[3]

أما ما أثارته هذه الثروة الأدبية الطائلة من الإعجاب- وأنا أعني بها الأغاني- فلي عليه شاهد من قول ياقوت الحموي: "لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر، شائع الذكر، جم الفوائد، عظيم العلم، جامع بين الجد البحت والهزل النحت، وقد تأملت هذا الكتاب، وعنيت به، وطالعته مراراً وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلّدات..." [1]

ولي عليه شاهد اخر فيما صنعه يحيى الخذوج المرسي من "كتاب الأغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج..."[2]

ولقد قلت: إنّ من هذا الإعجاب ماكاد يدخل في الأساطير، فمنها ماقيل بما يشبه الإجماع من المؤرخين والمعاصرين- عدا الدكتور خلف الله- من أنه أهداه إلى سيف الدولة الحمداني. حتى لكأنهم يقولون- حين يروون هذا- إن مثل كتاب الأغاني لايليق إلا بأمير مثل سيف الدولة ممدوح أبي الطيب المتنبّي، وهو فخر مابعده فخر.

ولقد جاءت أسطورة الإهداء إلى سيف الدولة أوّل ماجاءت في كتاب معجم الأدباء، فقد جاء فيه: "وقال الوزير أبو القاسم الحسن بن الحسن المغربي في مقدّمة ما انتخبه من كتاب الأغاني إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار..."[3]

ولا أعرف كيف فهم القدماء والمعاصرون من هذا النص المضطرب أن أبا الفرج أهداه إلى سيف الدولة، فإذا أخذنا النص على اضطرابه كان معناه- كما فهم منه خلف الله- أن الوزير المغربي انتخب كتاب الأغاني إلى سيف الدولة، وإذا صح هذا فأين إهداء أبي الفرج كتاب الأغاني إلى سيف الدولة؟ إنّ كل مافي الأمر أنّ الوزير المغربيّ أختار منتخبات من كتاب الأغاني لسيف الدولة، وهذا باطل لأن الوزير المغربي متأخر عن عصر سيف الدولة، إذ توفي سنة 418هـ.

وإذا افترضنا أنه سقط من النّص شيء يدلّ على هذا كان علينا أن نعيد كتابته على هذه الصورة: "وقال الوزير أبو القاسم... المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني [أنه انفذه] إلى سيف الدولة ابن حمدان فأعطاه ألف دينارٍ وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد فقال: لقد قصّر سيف الدولة وإنه يستأهل أضعافها...". فإذا قبلنا النصّ على هذه الصورة فهمنا منه أن أبا الفرج أنفد كتاب الأغاني إلى سيف الدولة وأنه أجازه عليه.

ويرى الدكتور خلف اللّه- وأراني أوافقه- أن هذا لم يقع لجملة أسباب منها:

"أن الكتب التي جمعت من أخبار سيف الدولة الأدبية والتأريخية الأمور الكثيرة" [1] لم تذكر " لهذه المسألة ظلاً... مع عناية أصحاب هذه الكتب بما هو من جنس هذه المسألة"[1]. وأنّ العداوة التي كانت قائمة بين الحمدانيين والبويهيين والتي استتبعت حروباً كانت تمنع أبا الفرج- وهو كاتب المهلبي- وزير البويهيين أن يهدي كتابه إلى أعداء أولياء نعمته.

زد على ذلك أن أبا الفرج ينصّ في مقدمة الأغاني أن رئيسًا من رؤسائه قد كلّفه جمعه له. وسيف الدولة ليس برئيس، وإنما هو أمير، ولو كان - على أسوأ الفروض- رئيساً لما كان رئيساً لأبي الفرج[2].

ورغم كلّ هذا فقد بنى بعض المعاصرين على مسألة هذا الإهداء نتائج منها قول بروكلمان عن أبي الفرج: "ومن ثمّ وجدناه ينادم سيف الدولة" [3] علمًا أن من يقرأ ما تبقى من كتب أبي الفرج- كما قرأها الدكتور خلف الله- يجده لم يزر في حياته إلاّ أربع مدن- على وجه التحديد- هي الكوفة، والقادسية، والبصرة، وإنطاكية[4]. أما بغداد فقد سكن فيها كما مرّبنا ويمكن أن نزيد على أربع المدن هذه حصن مهدي وهي في خورستان، وقد ذكر زيارته إياها في أدب الغرباء.

ومهما يكن من أمرٍ فإن مسألة إهداء الكتاب إلى سيف الدولة أسطورة نسجها المعجبون بالكتاب وبمؤلفه. وإذا كان سيف الدولة ممن ليست لهم علاقة بالكتاب؛ فإن المهلبي كان كذلك-أقول هذا لأنني رأيت الدكتور خلف الله يميل إلى ذلك- أعني أن الكتاب ألف للمهلبي ويرجحه، وحجته على ذلك أن المهلبي ممن تنطبق عليه صفة

الرياسة، وأنّ هنالك من العلاقة بينه وبين أبي الفرج مايجعل تأليف الكتاب له أمراً وارداً. أما لماذا لم يذكره باسمه الصريح مكتفياً بإطلاق لفظ الرئيس عليه فذلك عائد في رأيه إلى أنّ المهلبي "قدمات مغضوبًا عليه من معزّ الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ولعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول في المهلبي شيئا من الرثاء" [1]

ويغلب على ظني أن الأمر لم يكن كذلك لجملة أمورٍ منها أننا نعلم أنّ أبا الفرج كتبه مرّةً واحدة في عمره" [2] فإذا صحّ هذا وهو عندي صحيح لالشيء إلا ّ لضخامة حجم الكتاب الذي بلغ- كما يقول ابن النديم- خمسة آلاف ورقة. وصعوبة نسخه. والدليل على ذلك أن أبا الفرج نفسه لم يحتفظ لنفسه إلا بمسوّدة الكتاب "وهي أصل أبي الفرج أخرجت الى سوق الوراقين لتبتاع... [ف] بيعت في النداء بأربعة آلاف درهم، و... أكثرها في طروسٍ وبخطٍّ التعليق" [3] أقول: إذا صحّ أنه كتبه مرّة واحدة، ولاشيء يمنع من صحته، فإن ذلك معناه أنه أهدى النسخة إلى المهلبي في حياته وليس بعد وفاته، وفي وزارته وليس قلبها إذ ماذا كان يؤمّل أبو الفرج بالمهلبي- وهو المفلس- قبل وزارته؟ فإذا كان ماذهبت إليه صحيحاً- والمهلبي في مجده ورفعته ووزارته- فما الذي كان يمنع أبا الفرج من ذكر إسم الرئيس صراحة؟

إنّ فرض الدكتور خلف الله كان سيكون صحيحاً من أن أبا الفرج لم يذكر المهلبي لأنه كان مغضوباً عليه يوم توفي لو ثبت أنّ أبا الفرج أخرج نسخة من كتابه بعد وفاة المهلبي. أما مسألة أن أبا الفرج لم يرثه يوم مات فتلك مسألة بها حاجة إلى أن يكون ديوان أبي الفرج بين أيدينا نتحرى الأمرفيه. أما وقد ضاع الديوان فتقرير رثائه إياه وعدمه يبقى رجماً بالغيب الذي لايعلمه إلاّ الله.

فإذا قررّت هذا، فليس في وسعي وأنا أقول إنّه لم يؤلف لا لسيف الدولة الحمداني ولا للوزير المهلبي- أن أعين الرئيس الذي ألف له، وحسبي من هذا أنني مشيت من الطريق نصفه.

وأسطورة أخرى صاغها المعجبون، فقال قائلهم عن الحكم المستنصر صاحب الأندلس أنه: "بعث في كتاب الأغاني الى مصنّفه أبي الفرج الأصفهاني [كذا] وكان نسبه في بني أميّة، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذّهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق" [1]

وعلى أنني لا أعرف متى ألفّ أبو الفرج- على وجه التحديد- كتاب الأغاني، ولا أعرف أيضا من أين جاء السيد أحمد صقر بقوله عنه إنه نهض "بتأليف كتاب الأغاني العظيم ولما يبلغ الثلاثين من عمره" [2] إلاّ أنني أكاد أظن أنه ألفه بعد مقاتل الطالبيين بنحو من ثلاثين عاماً أو تزيد قليلاً، فقد قرأه عليه تلميذه ابن دينار الكاتب قال :"قرأت على أبي الفرج على بن الحسين الأصفهاني (كذا) جميع كتاب الأغاني" [3]. وابن دينار هذا من واسط مولداً ومنشأ، ويبدو أنه نزل إلى بغداد لطلب العلم ثم عاد الى مدينته واسط فقد "سأله الناس بواسط بعد موت أبي محمد عبد الله العلوي أن يجلس لهم صدراً فيقرئهم فامتنع" [4]، ومعنى هذا أنه نزل إلى بغداد- كما هي طبيعة الأمور- وهو في سنّ الطلب، فإذا فرضنا أنه لقي أبا الفرج وله من العمر عشرون سنة، فمعنى هذا أنه قرأه عليه في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. وهذا الفرض ينسجم مع أخذ بن دينار عن أبي سعيد السيرافي. ويمكن أن يكون الأغاني- بعد هذا قد ألف قبل هذا التاريخ.

فإذا صحّ هذا الفرض فمعناه أن الكتاب قد ألّف قبل أن يتولّى الحكم المستنصر الخلافة بنحو من سبع سنين، لأنه "ولي... في ثاني أو ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلاثمائة" [5]. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بعث إليه أبو الفرج "بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق"؟ وهو يقرئه ببغداد لتلاميذه قبل أن يتولى الحكم المستنصر، وقبل أن يهتّم بجمع الكتب من الأقطار.

على أن ماترويه المصادر القديمة فصدّقه المحدثون بمن فيهم الدكتور خلف الله- من علاقة أبي الفرج بخلفاء الأندلس الأمويين هو عندي ضرب آخر من الأساطير، وأخشى أن أسوق أسبابي مفصّلة فأدخل في استطراد لا أحب أن أدخل فيه، ولكن لابأس من أن أقول إن علاقة أبي الفرج بروسائه- وهم من الشيعة- فضلاً عن تشيّعه يمنعانه من الاتصال بأولئك الخلفاء، ثم إذا كان هذا الاتصال حقيقة وكان " حصل له ببلاد الاندلس

مصنفات لم تقع إلينا، منها: كتاب نسب بني عبد شمس، وكتاب أيام العرب... وكتاب التعديل والانتصاف... وكتاب جمهرة النسب... وكتاب نسب المهالبة... وكتاب القيان..."[1] فإنني أفهم أن يهدي الى هؤلاء الخلفاء نسب بني عبد شمس، وأيام العرب وماإليها، ولكنني لا أفهم أن يهدي إليهم كتاب نسب المهالبة، فمالهم وهذا النسب؟ ثم إنني تصفحت ماوقع تحت يدي من فهارس أندلسية مثل فهرست ابن خير الإشبيلي، فلم أجد لتلك المؤلفات ظلاً.

ولكن يبدو أنّ المؤرخين لم يريدوا أن يصدقوا أن الأصبهاني أمويّ يتشيّع- كما ترجموا له - فجعلوا تشيّعه واجهةً، واختلقوا صلة سرّية بينه وبين الخلفاء الأمويين في الأندلس. وعلى أية حال: أعود إلى رأس أمري فأقول: إن حاسدي أبي الفرج ضعفوه، وإن المعجبين به نسجوا الأساطير التي تدور عليه وعلى كتابه حتى إن المرء لايستطيع أن يجد عند هؤلاء أو أولئك خيراً كثيراً، مما يجعله يواجه الكتاب بنفسه فيقول:

إن الحديث عن أهمية الاغاني من الوجهة الأدبية من نافلة القول، وللمرء أن يتصور كيف كان يمكن أن يكون حال الدراسات الأدبية في عصور الأدب العربي حتى عصر أبي الفرج لو كان الكتاب قد ضاع، وله أن يتصور مقدار الخسارة الفادحة لوحدث ذلك لأن هذا الكتاب لايعوضه كتاب آخر حتى من الكتب التي جاءت بعده، ونقلت عنه.

فإذا كان هذا الحديث نافلة فإن الحديث عن مرويات أبي الفرج وقيمتها التأريخية مما ينفع؛ فقد أخذ الأستاذ محمد كرد علي على أبي الفرج أنّه يشوّه صورة الأمويين[2] التي ارادها كرد علي أن تكون براقة. وأظن أنّ هذا يحسب لأبي الفرج لاعليه، وهو عندي دليل على التجرّد، وإلاّ فإن أبا الفرج أولى بالدفاع عن أجداده الأمويين من كرد علي لو أنه وجد في القول متسعاً، وفي القوس منزعًا.

أما الدكتور زكي مبارك، فقد أراد أن يتسلق قامتين شاهقتين في سماء الأدب العربي ليصفعهما فلم يجد سلمًا إليهما، ولم يكد حتى عثر على أبي الفرج فقال: "كان الأصبهاني مسرفًا أشنع الإسراف في اللذات والشهوات، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية،

ويهمل في الجوانب الجدّية إهمالاً ظاهراً يدلّ على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ، والرزانة، والتجمل والاعتدال، وهذه الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبه الدكتور طه حسين.. تكفي للاقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جرّ هذين الباحثين إلى الحطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر عصر شك، وفسق، ومجون..."[1]

وهكذا قعد الأصبهاني - كما يقال- في طريق قافية الدكتور زكي مبارك حتى لأحسب أنّ هذا الرأي من زكمبريّاته كما كان يحب أستاذنا الذكتور الطاهر أن يصف بعض آرائه، وإلاّ فإنّ أبا الفرج قد وصف من تهتّك مجّان الكوفة مثل الحسين بن الضحاك، والحمادين الثلاثة ومن إليهم، ووصف أيضاً صلاح محمد بن كناسة وتقواه، وزهده أفيكون من ذنبه أن الدكتور طه حسين رحمه الله قد استوحى من أخبار المجان أن العصر عصر "شك وفسق ومجون"؟ ثم إذا لم يكن العصر كذلك فلم استحدث ديوان للزنادقة وكان حمدويه صاحب الزنادقة؟ ولم يكن هذا الديوان قائماً على عصر الخلافة الراشدة أو على عصر الأمويين.

وإن عجبت فاعجبْ من أن الدكتور زكي مبارك ينسى أن الكتاب هو كتاب في الأغاني، وأن الأغاني تدور في مجالس اللهو وليس- استغفر الله- في بيوت الذكر والمساجد، وأن أخبار هؤلاء الشعراء الذين يتغنّى بأشعارهم هي - في الغالب- من جنس تلك المجالس، فماذا كان ينتظر الدكتور زكي مبارك أن يدوربها؟ ولم يكن أبو الفرج الأصبهاني بدعًا في هذا فمن يقرأ كتاب "الديارات" للشابشتي، أو كتاب "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري يجد في أجواء أخبارهما مايجده في أخبار الأغاني لا لشيء إلاّ لأن كليهما يكتبان عن الديارات وماإليها، وأنّ مجالس الخمر كانت تعقد في هذه الديارات.

أقول كلّ هذا لا أريد من ورائه أن أنفي تأثير حياة أبي الفرج في كتابه، ولكنني أريد أن أحمد الله أن كتب هذا الكتاب أبو الفرج وليس سواه من الذين يرون أنّ ناقل الكفر كافر وإلاّ لضاع علينا جانب من جوانب الحياة العربية ماكنّا نطمع أن نظفر به

عند غير أبي الفرج. على أن أبا الفرج لم يكن- كما أرى- "مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات"، لأن الذي يكتب مايقرب من أربعين كتاباً بينها الأغاني في خمسة آلاف ورقة، وأيام العرب وقد ذكر فيه ألفاً وسبعمائة من أيامهم، لايجد متّسعاً من الوقت ليسرف أشنع الإسراف في اللذات والشهوات.

ولكن هل كتاب الأغاني كتاب يتوفر على المادة التأريخية المحضة من سياسة واجتماع ما إليها؛ وأجيب أن «نعم» و«لا» في أنٍ واحد.

أما «نعم» فلأنّ فيه من المادة التأريخية مايوافق كتب التأريخ فيما يورده، ويزيد عليها بأننا نجد في أخباره من الجزئيات مالانجده في كتب التأريخ. وأما "لا" فلأنه اشترط على نفسه في مقدمة الكتاب أن يأتي بفقر "إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها، ومتصرفاً فيها بين جدٍّ وهزل..."[1] فكان يسوقه هذا المنهج الى ذكر أخبار يعرف هو قبل غيره أنها موضوعة، فيعقب [illegible] أنه إنما أوردها لئلايشذّ عن الكتاب خبر من جنسه ومن موضوعه، ومن يتصفح كتاب الأغاني يجدني في حلٍّ من أن أستشهد.

ولعلّ من هذا الباب كان نقله عن ابن خرداذبة وردُّه عليه في مواضع كثيرة، وكذلك فعل مع جحظة في "أخبار الطنبوريين" في مواضع. ولعلّ من هذا الباب أيضًا مايراه القارئ أحيانًا من نقله أنسابًا لايستطيع أحد أن يزعم أنها صحيحة أو حتى قريبة من الصحة.

على أنّ هذا المنهج كان فيه فائدة، فمن فوائده أنه جعل أبا الفرج يصورّلنا الحياة- من حيث يريد أولايريد- بجزئيات لم نكن نطمع أن نظفربها في غير كتابه منها مارواه عن طبّ الأسنان في البصرة وهو يترجم لعمر بن أبي ربيعة: " أنه أتى إلى الثريا يومًا ومعه صديق كان يصاحبه ويتوصل بذكره في الشعر، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج إليه، رأت صاحبه فرجعت فقال لها: إنه ليس ممن احتشمه، ولا أخفي عنه شيئا، واستلقي فضحك- وكان النساء إذ ذاك يتختّمن في أصابعهن العشر- فخرجت إليه فضربته بظاهر كفّها فأصابت الخواتيم ثنيتيه [illegible]ليين فَنَغَضَتَا، وكادتا تسقطان، فقدم البصرة فعولجتاله، فثبتتا واسودّتا..."[1]

ومما صوره أبو الفرج مما يمكن أن يدخل في تاريخ السجون في الحضارة العربية الإسلامية مارواه في ترجمة عريب المغنيّة قال: "لما وقف المأمون على خبرها مع محمد بن حامد أمر بإلباسها جبّةَ صوف، وختمَ زيقها، وحبسها في كنيف مظلم شهراً لاترى الضوء يدخل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب كلّ يوم.."[2]

ويعرض علينا أبو الفرج شيئا من الحضارة في بغداد يظنه من يراه اليوم أنّه تقليد أوربي محض وفد إلى تقاليدنا في آداب الشرب في قوله: "كان الواثق يحب المواخير، وماقيل فيها، وماغنّي به في ذكرها. فعقد حانتين: إحداهما دار الحرم، والأخرى على الشط، وأمر بأن يختار له خمار نظيف، جميل المنظر، حاذق بأمر الشراب، ولايكون إلا نصرانيًا من أهل قطربل. فأتي بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة، فجعلهم الواثق في الحانتين، وضمّ إليهما خدمًا، وغلمانًا وجواري رومية. وأخدم النساء حانة الحرم، والرجال حانة الشط. ونقل إليهما طرائف الشرب، وفرشهما من فرش الخلافة، وعلّق عليهما السُّتُور، جعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة... فلما فرغ منها... وحضرنا وخرج الخمار، هو وأولاده معه، عليهم الأقبية المسهمة، وفي أوساطهم الزنانير المحلاّة، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان، والمبازل في الصواني، وأخرجت تلك الدّنان المذهبة، وقد طينت رؤوسها تطيينًا نظيفًا، يعبق منه الطّيب، فأقيمتْ بإزاء المجلس الذي كان فيه جالسًا، فبزلت، كما يفعل في الحانات ، وجعل يؤتى بالأنموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختاركلّ منهم مايشتهيه. فيأخذ دنًا ويجئ الى الخمّار فيكتال منه بمكيال إنائه كما يفعل في المواخير..."[1]

وإذاً فقد كانت الخمر في بغداد وفي حاناتها- كما هي في أوربا اليوم- تشرب بمكيالٍ، وتذاق قبل شربها، ولولا أبو الفرج ماعرفنا هذا، ولا عرفنا طبيعة الحانات البغدادية.

ولاأريد أن أطيل على القارئ بسرد مثل هذه اللقطات الجميلة، لأنني أطمع أن يكتشفها بنفسه، ولكنني أريد أن أقول : إن أبا الفرج وضع تحت أيدينا مادّة تنفعنا في دراسات شتى شرط أن يكون الباحث الناظر في "الأغاني" باحثًا بحقٍ وحقيق. وإلا فإنّ أبا الفرج لم يكن ليخلو- في أحيان نادرة- من خلطٍ لا أعرف إن كان جاء من ذات نفسه فدبّ إلى الكتاب أم من نسّاخه. وأضرب مثلا واحداً على هذا الخلط هوما وقع

له حين ترجم ليوسف بن الحّجاج الصيقل، فقد خلط بينه وبين يوسف لقوة خلطًا لا أريد أن أعرض إليه الآن بأكثر من أقول: إنهما شخصيتان لاشخصية واحدة، كما توهّم أبو الفرج، على أن من الأمانة أن أقول، إنّ هذه الخلط قد جاءه من محمد بن داود الجراح صاحب كتاب "الورقة" فتابعه، ولم يتثبت خلاف عادته في التثبّت- فوقع فيما وقع فيه. وأن أقول أيضاً إن أحداً ممّن تناولوا كتاب الأغاني بالتحقيق أو بالدراسة لم يتنبه إلى ذلك فيشير.

بقي عليّ أن أشير إلى أن كتاب الأغاني ليس كتاب أخبار فحسب، وإنما هو كتاب نقدٍ أيضاً، وتأتيه الصبغة النقدية من جانبين أولهما فيما حفظ لنا من "كثيرٍ من مسائل النقد الأدبي وأحكامه إلى أواخر القرن الثالث" [1]. وثانيهما من إيمانه بالمدارس الشعرية فهو "كثيراً مايصل بين الشاعر وأساتذته، والذين روى عنهم، أوتلقى أوتأدب، أو احتذى حذوهم، وانتهج نهجهم، وكأنه بذلك يميز المذاهب الأدبية بعضها عن بعض ويرجع الشعراء الى حلبات أو مدارس يصدر عنها كلامهم [2].

وفضلاً عن أنه تكلّم عن السرقات الأدبية وما إليها فقد "فطن إلى كثير من الأمور التي تؤثر في الشعر، وتوجّه الشعراء كالمكان، والصحبة، والسيرة..."[3]. ومن هنا، أظنّ أن على من يدرس النظرية الإقليمية عند الثعالبي أن يبحث عن جذورها عند أبي الفرج وعند ابن سلام من قبله. فقد يصل إلى أن العرب توصلوا إلى هذه النظرية النقدية قبل (تين) بقرون. وعلى العموم فإن أبا الفرج لم يدرس ناقداً، وإنما بقي في تراثنا العربي راويةً إخباريًا، وماهو كذلك فحسب، فإن لديه من الذوق مايجعله ناقداً كما هو، وناقداً كبيراً لو كان أراد.

الهوامش:

(*) المقالة - في الأصل- تقديم كتاب الأغاني الذي يصدر عن الأنيس في الجزائر.

(1) العبر وديوان المبتدأ والخبر 1: 1070.

(2) بينت هذا السطو فيما بعد في جريدة السلام ع- 124- 125 في 1- 2 أفريل (نيسان) 1991.

(*) انفرد ابن النديم في الفهرست : 127 بقوله: إنه "من ولد هشام بن عبد الملك".

(1) الأغاني - دار الكتب 19:63

(2) تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني4: 633، والأمر مفصّل في صاحب الأغاني: 44 ومابعدها.

(3) تاريخ الأدب العربي: 633

(4) ينظر صاحب الأغاني: 40- 41، 36.

(1) صاحب الأغاني: 22

(2) الأغاني- دار الكتب: 19: 47، وقد خلط الدكتور خلف الله بين محمد بن الحسين الكندي و الخثعمي الكوفي، ويبدو لي أنهما شخصيتان وليس شخصية واحدة، والخثعمي هذا قد قدم بغداد.

(3) ينظر صاحب الأغاني: 102

(4) ينظر نفسه: 108

(1) صاحب الأغاني: 102- 103.

(2) نفسه

(3) حضارة العراق 8:26.

(4) تنظر القصيدة في أشعار أبي علي البصير، مجلة المورد (العراقية) السنة الأولى، العددان 3،4، 1973

(5) صاحب الأغاني: 104.

(1) حضارة العراق 8: 27

(2) الأغاني: 14: 165.

(1) فصل من صدر كتابه في المعلمين: 153، مجلة المورد، العدد 4، السنة7، 1978، عدد خاص بالجاحظ

(2) حضارة العراق 8: 27.

(3) مقاتل الطالبيين: 78.

(4) ينظر صاحب الأغاني: 104.

(1) صاحب الأغاني:112

(2) ينظر معجم الأدباء 13: 113 ومابعدها.
(3) ينظر نفسه 13: 99.
(4) تاريخ الأدب العربي 4: 40. وينظر تفصيل الخبر في العيون والحدائق في أخبار الحقائق 5: 124-125.
(1) ينظر الموشح: 346.
(2) معجم الأدباء 13: 104،
(3) أخبار هذا الانقسام مستفيضة في كتب التاريخ بحيث لا أرى بي حاجة الى النّص والاستشهاد.
(1) صاحب الأغاني:116
(2) الفهرست: 291
(3) معجم الأدباء 18: 40
(4) ينظر الأغاني 8: 265- 266
(5) تجارب الأمم 5: 84
(6) أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني: 61
(7) نفسه: 62.
(1) أبو الفرج... وكتابه الأغاني: 63-64
(2) السابق: 63
(3) معجم الأدباء 13: 255- 256.
(4) السابق: 18: 27.
(5) السابق: 18: 95.
(6) الأغاني: 20: 217.
(7) صاحب الأغاني:117.
(8) أبو الفرج: 66.
(1) الأغاني: 19: 135
(2) تنظر ترجمته في أبو الفرج: 62
(2) ينظر على سبيل المثال الأغاني- الدار 8: 4، 9، 95. 309.
(4) الأغاني 8: 295، 305
(5) نفسه 8: 418.
(6) ينظر صاحب الأغاني: 54 ومابعدها
(1) الفهرست: 158
(2) أبو الفرج: 64- 65.
(1) الأغاني: 6: 63
(2) ينظر صاحب الأغاني: 122
(3) نفسه: 120.

(4) ينظر السابق: 121،
(5) نفسه.
(6) معجم الأدباء15: 116 بدلالة صاحب الأغاني
(7) ينظر السابق2: 256.
(1) الأغاني10: 70
(2) تاريخ بغداد 11:399
(1) معجم الأدباء 13: 104- 105.
(2) تاريخ بغداد 11: 399، والنجوم الزاهرة4:15، وشذرات الذهب 3: 19.
(3) ينظر المقاتل: 721.
(4) ينظر تاريخ بغداد 11: 398
(5) وفيات الأعيان1:417
(6) ينظر المقاتل: 6.
(7) تاريخ بغداد6: 17.
(1) معجم الأدباء 13: 129
(2) السابق 14: 246
(3) السابق 14:248
(4) ينظر على سبيل المثال الفرج بعد الشدّة1: 67، والمقاتل 350- 351
(5) ينظر على سبيل المثال الفرج1: 86، والأغاني 10: 101 102.
(6) تنظر ترجمته في وفيات الأعيان1: 563- 565 وتأريخ بغداد 13 بـ 55 - 156
(7) معجم الأدباء 17: 127- 128.
(8) تاريخ بغداد 6 : 189- 190
(9) السابق 6: 191
(10) السابق 11: 330- 331.
(1) تاريخ بغداد 11: 400.
(2) العبر في خبر من غبر2 305، وشذرات الذهب3: 19.
(3) الكامل في التاريخ 7: 25.
(4) صاحب الأغاني: 103.
(5) مقاتل: 698.
(1) صاحب الأغاني: 103.
(2) ينظر على سبيل المثل مارواه أبو الفرج من وفود الفرزدق على سكينة بنت الحسين ومادار بينهما من حديث في الأغاني 8: 38- 39
(3) يتمة الدهر3:144، وينظر معجم الأدباء 13:100- 101.
(1) معجم الأدباء 14: 166- 167.

(2) ينظر نفسه 13: 108- 109.
(3) السابق 13: 105.
(4) أبو الفرج: 115.
(1) معجم الأدباء13: 101. وينظر من المعاصرين - على سبيل المثال - الأصمعي في أبو الفرج: 141- 144) والسيد صقر في ب: من مقدته مقاتل الطالبيين، وخلف الله في صاحب الأغاني: 119 وسواهم.
(2) معجم الأدباء13: 102 والسكباحة مرق يصنع من اللحم والخلّ والزغفران كما في حاشية المعجم.
(3) نفسه: 100
(4) نفسه: 102-103.
(1) شذرات الذهب 3: 19، وتاريخ بغداد11: 399.
(2) هما في يتيمة الدهر 3: 115 - 117، إحداهما ميميّة ، والأخرى رائية.
(3) معجم الأدباء 13: 101- 102.
(1) معجم الأدباء 13: 122- 123.
(2) ينظر يتيمة الدّهر 3: 118.
(1) معجم الأدباء 13: 108- 109.
(2) نفسه: 103- 104.
(3) السابق: 101.
(4) يتيمة الدهر 3: 117، ومعجم الأدباء 8: 148.
(5) معجم الأدباء 13: 116.
(6) تنظر الحادثة في معجم الأدباء 13: 123- 124.
(1) تأريخ بغداد 11: 400.
(2) معجم الأدباء 13: 96.
(3) نفسه .
(4) ينظر صاحب الاغاني: 19-21.
(5) معجم الأدباء 13: 113- 115.
(1) ينظر تأريخ بغداد 11:400، وشذرات الذهب 3: 20، وميزان الاعتدال 3: 123.
(2) الفهرست: 127.
(3) أبو الفرج: 157-159.
(1) ينظر الأعلام للذركلي 5: 88 حاشية.
(1) انفرد أبو جعفر الطوسي في الفهرست: 379 بذكر هذا الكتاب والذي يليه له. نقلاً عن صاحب الأغاني: 138.
(1) الأغاني 1:2.

(2) نفسه 5.

(3) نفسه 8: 154.

(4) قام الدكتور داود سلّوم بالإحصاء في كتابه "شخصيات كتاب الأغاني": 415- 434.

(1) تأريخ بغداد 11: 399

(2) الفهرست: 127.

(1) الأغاني 19: 108.

(2) نفسه: 112- 113.

(1) الأغاني 19: 63.

(2) نفسه، عرّد عن الجواب بمعنى عجز عنه.

(3) ميزان الاعتدال 3: 123.

(1) معجم الأدباء13:98.

(2) نفح الطيب 3:185.

(3) المصدر السابق 13:97.

(1) صاحب الأغاني: 80.

(2) ينظر نفسه: 76 ومابعدها.

(3) تأريخ الأدب العربي 3:68.

(4) ينظر المرجع السابق 26- 27.

(1) صاحب الأغاني: 91.

(2) معجم الأدباء 13: 98.

(3) نفسه: 126- 127.

(1) نفح الطيب 1: 386.

(2) مقاتل الطالبيين: أ.

(3) معجم الأباء 14: 248.

(4) نفسه 14: 246 وإذا صح فرضي ثلاثت الأسطورة القائلة إنه ألفه في خمسين عامًا، لأن معناها أنه بدأبتأليفه سنة 293 وعمره بومذاك تسع سنوات!

(5) نفح الطيب 1: 385.

(1) تأريخ بغداد 11: 398.

(2) مجلة المجمع العلمي العربي في آذار (مارس 1928 نقلاً عن أبو الفرج: 176- 179.

(1) النثر الفني في القرن الرابع 1: 234- 235

(1) الأغاني 1: 1-2.

(1) الأغاني1: 230-231. بدلالة الدكتور داود سلوم في "شخصيات الأغاني".

(2) السابق 21: 76.

(1) الأغاني 7: 197- 198.

(1) تأريخ النقد الأدبي عند العرب: 146.

(2) نفسه.

(3) السابق: 147.

(4) تأريخ الأدب العربي 3: 69.